# مقياس ابن طباطبا في الحكم على التشبيه وأثره في الدراسات البلاغية

للدكتور الشحات محمد عبد الرحمن أبو سنيت

## تقديم :

تعتبر دراسة « ابن طباطبا » للتشبيه أهم الموضوعات البلاغية التي تناولها بالبحث والتحليل في كتابه « عيار الشعر » ، بل تعد أهم دراسة وصلتنا في هذا الموضوع ، منذ أن بدأ العلماء الحديث عنه حتى ابن طباطبا .

ودراسة « ابن طباطبا » للتشبيه تشمل جانبين :

جانب نظري : تناول فيه طريقة العرب في التشبيه ، والمادة التي يستخدمونها في تشبيهاتهم .

وجانب فني : تناول فيه ضروب التشبيهات ، وأدوات التشبيه، ومقياس الحكم عليه وخصائص التشبيه عند العرب .

وغرضنا في هذا البحث ينصب على دراسة مقياس ابن طباطبا في الحكم على التشبيه ، من حيث الحسن والقبح ، باعتباره من اللمحات الجديدة في دراسته للتشبيه .

---

(*) أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، العلوي الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢هـ .

مقياس الحسن :

يمكننا أن نقول : إن حسن التشبيه فى نظر ابن طباطبا يرجع إلى توفر عنصر الصدق فيه ، ويتأتى صدق التشبيه بوجود معان مشتركة ، وصفات متماثلة بين طرفى التشبيه .

فللتشابه جهات كثيرة ، منها : الصورة والهيئة ، والمعنى ، والحركة ، واللون ، وغيرها ، وكلما زاد عدد الصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به قويت المشابهة بينهما وتأكد صدق التشبيه فكان تشبيها حسنا ، وكلما قل عدد الصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به ضعف التشبيه ونقصت درجة حسنه .

وفى هذا يقول ابن طباطبا : « والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به حركة وبطءا وسرعة ، ومنها تشبيهه به لونا ، ومنها تشبيهه به صوتا ، وربما امتزجت هذه المعانى بعضها ببعض ، فإذا اتفق فى الشىء المشبه بالشىء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه ، وتأكد الصدق فيه ، وحسن الشعر به ، للشواهد الكثيرة المؤيدة له .

فابن طباطبا فى هذا النص يرجع حسن التشبيه إلى قوته وصدقه بكثرة المعانى المشتركة بين طرفيه ، لأنها شواهد تؤيد دعوى المشابهة .

ولذا نراه يؤكد على التزام الصدق فى التشبيه فى مواضع متعددة من كتابه ، فيقول : « فعلى الشاعر اجتناب ما يشينه من سفساف الكلام ، وسخيف اللفظ ، والمعانى المستبردة ، والتشبيهات الكاذبة ، والإشارات المجهولة ... ويتعمد الصدق والوفق فى تشبيهاته وحكاياته ... » ومتى

تضمن الشعر صفات صادقة ، وتشبيهات موافقة ، وأمثالا مطابقة ، تصاب حقائقها ، ارتاحت إليه النفس ، وقبله الفهم (٤) .

وتأكيد ابن طباطبا فى هذه النصوص على التزام الصدق فى التشبيه ، يؤيد ما قلناه من أن حسن التشبيه عنده يعود إلى صدقه .

مثال للتشبيه الصادق :

ويوضح ابن طباطبا نظرته بمثال للتشبيه الصادق ، فيقول :

فمن التشبيه الصادق قول امرئ القيس .

نظرت إليها والنجوم كأنها
مصابيح رهبان تشب لقفال

فشبه النجوم بمصابيح رهبان ، لفرط ضيائها ، وتعهد الرهبان لمصابيحهم ، وقيامهم عليها لتزهر إلى الصبح ، فكذلك النجوم زاهرة طول الليل ، وتتضاءل للصباح ، كتضاؤل المصابيح له ، وقال تشب لقفال لأن أحياء العرب كالبادية إذا قفلت إلى مواضعها التى تأوى إليها ، من مصيف إلى مشتى ، ومن مشتى إلى مربع ، أو قدت نيرانا على قدر كثرة منازلها وقلتها ، ليهتدوا بها ، فشبه النجوم ومواقعها من السماء بتفرق تلك النيران واجتماعها فى مكان بعد مكان على حسب منازل القفال بالنيران الموقدة لهم (٥) .

فهذا المثال الذى حلله تحليلا دقيقا تشبيه صادق ، لوجود عدد من المعانى المشتركة بين طرفيه ، حيث تشابها فى الهيئة والصورة والضوء والهداية ، وهذا مما قوى التشبيه ، وضاعف من حسنه .

## أحسن التشبيهات :

وإذا كثرت الفصات المشتركة بين طرفى التشبيه وقوى الشبه بينهما ، صح العكس بين المشبه والمشبه به ، بوضع كل منهما مكان الآخر ، فيجعل تارة مشبها ، وأخرى مشبها به من غير أن يؤثر ذلك فى صحة التشبيه ، ونكون بهذا قد وقفنا على أحسن التشبيهات فى رأى ابن طباطبا .

ففى هذا يقول : « فإذا تأملت أشعار العرب ، وفتشت جميع تشبيهاتها ، وجدتها على ضروب مختلفة ، تتدرج أنواعها ، فبعضها أحسن من بعض ، وبعضها ألطف من بعض ، فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبة مثله مشتبها به صورة ومعنى (٦) .

فأحسن التشبيهات عند « ابن طباطبا » ما صح عكس طرفيه لقوة الشبه بينهما ، فيقال : نجوم كالمصابيح ، ومصابيح كالنجوم ، ووجه كالبدر ، وبدر كالوجه ... وهكذا .

وصحة العكس بين طرفى التشبيه نتيجة مترتبة على صدق التشبيه ، حيث لا يصح العكس بين الطرفين إلا إذا كان كل منهما شديد الشبه بالآخر ، لتعدد الصفات المشتركة بينهما .

## اختلاف الجنس لا يتعارض مع صدق التشبيه :

وإذا كان ابن طباطبا قد أكد على صدق التشبيه ، وجعل أحسن التشبيهات ما صح عكس طرفيه لقوة الشبه بينهما ، فإنه لا يريد بذلك اتحاد الجنس ، وتماثل الحقائق ، فإن ذلك يؤدى إلى تشبيه الشىء بنفسه ، وإنما يقصد إلى أن يتشابه الطرفان تشابها قويا فى المعنى الذى يقع فيه التشبيه من غير نظر إلى الحقائق والأجناس .

والأمثلة التى ضربها للشبيهات الحسنة تؤيد ما قلناه .

فتشبيه القلوب الرطبة واليابسة بالعناب والحشف البالى فى قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى

تشبيه صادق مع البعد الشاسع بين حقيقة طرفيه .

وتشبيه طرف قرن الظبى بالقلم الذى أصابه المداد فى قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه
قلم أصاب من الدواة مدادها

من أجود التشبيهات ، وشتان بين حقيقة كل من طرفيه .

وتشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل فى قول جناده بن جزى :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل

تشبيه حسن ، جمع الصورة واللون والحركة والهيئة ، وحقيقة كل من طرفيه مختلفة . وهكذا كافة ما استشهد به من تشبيهات (٧) .

وإذا كان البعد بين حقيقة الطرفين لا يتنافى مع صدق التشبيه ، فإنه أيضا لا يؤثر فى صحة العكس بينهما ، لأن صحة العكس مترتبة على صدق التشبيه كما بينا .

وعلى هذا فتأكيد ابن طباطبا ، على صدق التشبيه لا يعنى اتحاد الحقائق ، كما أن اختلاف الحقائق لا يتعارض مع صدق التشبيه ، ولا يؤثر فى صحة العكس بين طرفيه ، فالعبرة فى صحة التشبيه بوجود المعنى المشترك الذى يجمع بين طرفيه .

سبب قبح التشبيه :

مما سبق رأينا أن ابن طباطبا يعتبر التشبيه الصادق هو التشبيه الحسن ، وبناء عليه يكون التشبيه الذى فقد عنصر الصدق تشبيها معيبا .

ولم يصرح ابن طباطبا بذلك ، ولكن التشبيهات التى حكم بقبحها تنطق بما قلنا . فهى إما فيها غلو أخرجها عن حد المبالغة المقبولة ، كما فى قول خفاف بن ندبة :

أبقى لها التعداء من عتداتها ومتونها كخيوطة الكتان

قال ابن طباطبا : العتدات : القوائم ، أراد أن قوائمها دقت حتى عادت كأنها الخيوط ، وأراد ضلوعها ، فقال : متونها (٨) .

فهذا التشبيه معيب لخروجه عن الحد المعتاد فى الوصف ، فكان تشبيها غير صادق ، ولذلك قال أبو هلال بعد بيانه : وهذا بعيد جدا (٩) .

وهى إما خارجة عن الصدق لعدم وجود مشابهة بين الطرفين ، كما فى قوله النابغة الجعدى :

كأن حجاج مقلتها قليب من السمقين أخلق مستقاها

قال ابن طباطبا : والحجاج لا يغور ، لأنه العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب (١٠) .

فالتشبيه معيب لأن الشاعر شبه الحجاج بالقليب ، وهذا خطأ ، لأن الحجاج لا يغور ، وإنما تغور العين (١١) .

وكما فى قول ساعدة بن جؤية :

كساها رطيب العيش فاعتدلت لها
قداح كأعناق الظباء الفوارق

قال ابن طباطبا : شبه السهام بأعناق الظباء ، ولو وصفها بالدقة كان أولى » (١٢) .

فالتشبيه معيب لخروجه عن الصدق ، إذ ليس بين طرفيه شبه . (١٣).

فمن النظر فى التشبيهات السابقة ، والتأمل فى حكم ابن طباطبا عليها ، يثبت ماقلناه من أنه يحكم على التشبيه بأنه معيب إذا فقد عنصر الصدق .

## أثر نظرة ابن طباطبا فى الدراسات البلاغية :

كان لنظرة ابن طباطبا فى الحكم على التشبيه بالحسن إذا كان صادقا وصح العكس بين طرفيه أثر كبير فى دراسات البلاغيين من بعده، إذ أخذ كثير منهم هذه الفكرة كما سنرى فيما يلى :

## قدامة ابن جعفر :

يرى قدامة أن حسن التشبيه يرجع إلى كثرة المعانى المشتركة بين طرفيه ، فيقول : « أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد » (١٤) .

وبهذا يلتقى مع ابن طباطبا فى نظرته :

## الإمام عبد القاهر :

تأثر بفكرة العكس التى أثارها ابن طباطبا ، ودرس على أساسها نوعا من التشبيه سماه جعل الفرع أصلا والأصل فرعا ، وفى هذا يقول : إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدت — هذا النوع — يكثر فيها، وذلك أنهم يشبهون الشىء فيها بالشىء فى حال ثم يعطفون على الثانى فيشبهونه بالأول فترى الشىء مشبهاً مرة ومشبها به أخرى ، فمن أظهر ذلك أنك تقول فى النجوم كأنها مصابيح ثم تقول فى حالة أخرى فى المصابيح كأنها نجوم، ومثله فى الظهور والكثرة تشبيه الخد بالورد والورد بالخد ، وتشبيه

الروض المنور بالوشى المنمنم، ونحو ذلك ثم تشبه النقش والوشى فى الحلل بأنوار الرياض ، وتشبه العيون بالنرجس ثم تشبه النرجس بالعيون ... » (١٥) .

ويرى الإمام أن هـــذا الضرب يجىء فى التشبيه مجيئاً حسناً وينقاد القياس فية انقياداً لا تعسف فيه ، وتصادفه لايطاوعك فى التمثيل تلك المطاوعة ، ولا يجرى فى عنان مرادك ذلك الجرى .

ومن ثم يجعل الإمام صحة عكس التشبيه من العلامات التى تميز التشبيه الصريح عن تشبيه التمثيل ، إذ لاتجىء طريقة العكس فى التمثيل على حدها فى التشبيه الصريح، وأنها إذا سلكت فيه كان مبنياً على ضرب من التأويل والتخيل يخرج عن الظاهر خروجاً ويبعد عنه بعداً شديداً (١٦) .

رشيد الدين العمرى :

ردد فكرة العكس التى بدأها ابن طباطبا ، فقال : أجمل التشبيهات وأكثرها قبولا لدى الطباع هى تلك التى إذا انعكست وشبه فيها المشبه به بالمشبه فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته ، وصواب التشبيه وصحته ، مثل تشبيه الطرة بالليل البهيم ، فإنهم إذا شبهوا الليل البهيم بالطرة كان التشبيه جميلا مقبولا . (١٧)

ابن الأثير :

تأثر بفكرة العكس، وذكر أن من التشبيه ضرباً يشمى الطرد والعكس، فقال : اعلم أن من التشبيه ضرباً يسمى الطرد والعكس ، وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبها به، ويسميه بعضهم غلبة الفروع على الأصول، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة ، ومما جاء من ذلك قول ذى الرمة :

ورمل كأرداف العذارى قطعته إذا ألبسته المظلمات الحنادس

ألا ترى إلى ذى الرمة كيف جعل الأصل فرعا، والفرع أصلا، وذاك أن العادة والعرف فى هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء وهو مطرد فى بابه فعكس ذو الرمة القصة فى ذلك فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء، وإنما فعل ذلك مبالغة ... (١٨).

ثم امتدح ابن الأثير هذا الضرب من التشبيه فقال: وهو موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ (١٩)

العلوى :

وتناول يحيى بن حمزه العلوى التشبيه المنعكس بالشرح، وبين موقعه فى الكلام فقالى: «وله موقع عظيم فى إفادة البلاغة ...» (٢٠)

كما بين أنه لا يستعمل فى كل التشبيهات وإنما الشرط فى استعماله ألا يرد إلا فيما كان متعارفا حتى تظهر فيه صورة الانعكاس (٢١)

السكاكى ومدرسته :

وأشار السكاكى إلى هذا التشبيه مبينا أن الغرض منه يعود إلى المشبه به، وهو إيهام كونه أتم من المشبه فى وجـــة الشبه، ومثل له بأمثلة كثيرة. (٢٢).

وسار الخطيب القزوينى على هذا المنوال، وسماه التشبيه المقلوب (٢٣). وظل العلماء يدرسون هذا اللون من التشبيه إلى يومنا هذا.

ومن هذا العرض الذى قدمناه يتبين لنا الأثر الكبير لفكرة ابن طباطبا فى عكس التشبيه، ومدى اهتمام العلماء بها.

وإلى اللقاء مع فكرة أخرى من أفكاره البلاغية فى العدد القادم بإذن الله.

# المراجع


١ — ينظر ابن طباطبا ومباحثه البلاغية والنقدية : ٩٢—٩٣

٢ — عيار الشعر : ١٧ . ابن طباطبا .

٣ — السابق : ٦٥٤

٤ — السابق : ١٢١

٥ — السابق : ٢٣

٦ — السابق : ١١

٧ — تنظر الأمثلة المذكورة وغيرها فى عيار الشعر : ١٨ — ٢٠

٨ — السابق : ٨٩

٩ — الصناعتين ١٩٦ . أبو هلال .

١٠ — عيار الشعر : ٩٠

١١ — الصناعتين : ١٩٧

١٢ — عيار الشعر . ٩١

١٣ — الصناعتين : ١١٧

١٤ — نقد الشعر : ٦٥

١٥ — أسرار البلاغة : ١٦٥

١٦ — السابق : ١٨٥

١٧ — حدائق السحر ودقائق الشعر : ١٣٨

١٨ — المثل السائر : ٩٢/١٥٨

١٩ — السابق : ٢/١٥٩

٢٠ ، ٢١ — الطراز : ١/٣٠٩

٢٢ — مفتاح العلوم : ١٦٣

٢٣ — بغية الإيضاح : ٣/٤٣